بروج القلب ..

– أواه يا جدة،

لم أكن أظنها بهذه القسوة، كأنها ثلمةُ نصلٍ استمرأت حزَّ رقاب الرضع.

– ما فتئت تكون كذلك يا صغيرتي.

– ولكنني ما أعددت لذلك عدته، كنت أحسب كدراتها محض منغصات تنتاب رائق كأسي، أستبين منها الضد بضده، وأعرف بها ما فقدت بما حزت.

– ومتى كانت هي بهذه الحكمة! إذا ما أتتك يا صغيرتي تسعى سعيها بنارها وشنارها حينا، وبرغائبها وفتونها حينا، لترين منها ما يعجل بك إليه وحده = إن أراد بك الخير، أو ما يشطط بك عنه = إن أبعدك وهو الغني.

– ولكنني ما اصطففت على عتباتها، جلُّ ما فعلته أن وقفت أرقبها من بعيد، ولم أحز منها – إن حزت– إلا ما يسد الرمق.

– بل لعلَّها ألين على رقاب المصطفين على أبوابها يتصارعون، وتلهث وراء من أعرض عنها زاهدا.

– وكيف أزهد وأنا التي لم أخبُر؟ أويزهد من عاش الأنصاف من كلِّ متاح، ثمَّ إذ به يرتقي إلى رتبة زاهد وهو ما ذاق ليعرف فيحكم: أينأى أم يلتهِف!

– أوترين أنَّ محل المعرفة ما ذاقته الحواس!

– أوليست كذلك! كيف أعرف ما دمت لم أذق!

– وكيف نعرف ما لا يحسُّ ولا يُذاق ما دمت تُرجعين القياس إلى المحسوس وحده؟

– أتقصدين العقل؟ لا أثق بمعرفة العقل ولا بحكمه، أراه نسبيا ذي سقف؛ يتغيَّر بتغير الصروف والأعراض وما يستجد، ويقف أمام حدودٍ بعينها لا يتعدّاها، لا ثبوت له إلا إن ثبتت قطرات ماءٍ متداحةٍ في كأسٍ تحت سطوة شمسٍ قالية.

– إذن، فأنت ترين أن الأنفس لا تحفظ من زللٍ إلا إن عرفت وذاقت، ثم بنت على ذلك حكمها.

– هذا – في نظري– جوهر الزهد، أن تعفَّ – وأنت القادر– عن ما عرِفت.

– وما الذي تقتضيه المعرفة؟

– حيازةُ القياس.

– فما مناط الفتنة؟

– أن تُعرض عليك.

– فما النجاةُ منها؟

– أن تُعرِض.

_ وفيمَ إعراضُك؟

– لأنني عرفتها وتبيَّنتها وحدَّدتها، كما عمِد موسى – عليه السلام– إلى المعاينة بالاستبانة يوم طفق إلى الكريم من الأحجار يأخذها بيده، فما دفعه عنها إلا المراد الإلهي لآية.

– أواستبان موسى النار!

– فعلها لمّا أراد الله، والاستدلال بإتيان الفعل.

– فقربها.

– فعل.

– فاستبانها – على جذوتها وزهوتها– ثم أجفل لما وجد من أصل الحرق.

– هذا ما أقوله، عرف لمّا ذاق.

– وما فعل يوسف وما ذاق؟

– عُرض عليه فأحجم.

– وفيم إحجامه.

– عُصم.

– ولم ذاك.

– نبي.

– وفعل النبي منداحٌ على قومه ومن اتبع ما كان في نطاق بشريتهم: فارتضته الفطر، ولبّته الجوارح، وهدأت للنأي عنه القلوب.

– وعلام القياس؟

– لا قياس، أتقاسُ الفضيلة في ميزانٍ ولو كان ميزان ذهب! أيحسب التعفف بالقيراط! أم تُباع الأنفة بالدرهم والدينار!

– أفتمنعني الصفات عن التجربة والقياس؟

– مادام للعقل سقفٌ لا يتعداه فينحرف، وللمحسوسات خذلانها لمن يقيس لو ما استوت ظروف المعاينة، فللصفات الحاجبات المانعات قياسها.

– وتحجبني عن المعرفة الكاملة، لأبني عليها فأحكم وأختار؟

– محلُّ التخيير مرهونٌ ببذل الفارق، والفارق إن ما أبانه القياس جلّته النصوص، ليعضد النقل العقل، فيحصل الوفاق.

– فإن اقتربت لأجتلي!

– الشر معلومٌ يستبينه العقل، وتدركه الفطر، وأن تعرفيه بإدراك وجوده واجب، فتهجرين مظانّه: حكمةً منك واتقاء ما لا تطيقه بشريتك.

– فإن اقتربت!

– أو تضمنين عودا سالما لا يمسسك فيه شرر!

– لا أفعل.

– احترق من اقترب مما أدركه بعقله، وبلِّغ عن حدوده بنصه، وأبت صفاته عليه الوقوع فيه.

– أواه يا جدة.

– حماك الله من إعمال عقلٍ فيما لا يجزي فيه الإعمال، والوقوع فيما تنكره صفاتك وإن تنزّهت الأسباب!